الجِهَادُ فِى سَبِيلِ الله

لخص الامام ابن القيم سياق الجهاد في الاسلام في « زاد المعاد » في الفصل الذي عقده باسم : « فصل في ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث الى حين لقي الله عز وجل » : اول ما أوحى به تبارك وتعالى ، ان يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك اولى نبوته ، فأمره ان يقرأ في نفسه « فأنذر » فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ : « يا أيها المدثر » ، ثم أمره ان ينذر عشيرته الاقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة واذن له في القتال . ثم أمره ان يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فان خاف منهم خيانة نبذ اليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر ان يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الاقسام كلها : فأمر ان يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الاسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة

واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم اليهم ·· وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسما أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم · وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره ان يتم لهم عهدهم الى مدتهم · وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، او كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فاذا انسلخت قاتلهم ·· فقتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق ، أربعة اشهر · وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده الى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم الى مدتهم · وضرب على أهل الذمة الجزية ·· فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة ·· ثم آلت حال أهل العهد والصلح الى الاسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب ·· وأما سيرته في المنافقين فانه أمر ان يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله ، وان يجاهدهم بالعلم والحجة ، وامر ان يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وان يبلغ بالقول البليغ الى نفوسهم ، ونهي ان يصلي عليهم ، وان يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه ان استغفر لهم فلن يغفر الله لهم ·· فهذه سيرته في اعدائه من الكفار والمنافقين » ··

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الاسلام تتجلى سمات اصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف امامها طويلا ، ولكننا لا نملك هنا الا ان نشير اليها اشارات مجملة :

السمة الاولى : هي الواقعية الجدية في منهج هذا

الدين ٠٠ فهو حركة تواجه واقعا بشريا ٠٠ وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي ٠٠ انها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ، تقوم عليها انظمة واقعية عملية ، تسندها سلطات ذات قوة مادية ٠٠ ومن ثم تواجه الحركة الاسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه ٠٠ تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات ، وتواجهه بالقوة والجهاد لازالة الانظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمُعتقدات والتصورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبّدهم لغير ربهم الجليل ٠٠ انها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي ، كما انها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الافراد ٠٠ وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لاخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده كما سيجيء ٠

والسمة الثانية في منهج هذا الدين : هي الواقعية الحركية ٠٠ فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم الى المرحلة التي تليها ٠٠ فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ٠ كما انه لايقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة ٠٠ والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها ٠٠ الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادىء والقواعد النهائية ٠ ذلك انهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا ، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين ، ويقولون ـ وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري

المسلمين الذين لم يبق لهـم من الاسلام الا العنوان ـ : ان الاسلام لا يجاهد الا للدفاع ! ويحسبون انهم يسدون الى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه وهو ازالـة الطواغيت كلها من الارض جميعا ، وتعبيد الناس لله وحده ، واخراجهم من العبودية للعباد الى العبوديـة لرب العباد ! لا بقهرهـم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيـدة ·· بعد تحطيم الانظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرهـا حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامهـا والتخلية بين جماهيرهـا وهذه العقيدة ، تعتنقها او لا تعتنقها بكامل حريتها ·

والسمة الثالثة : هي ان هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن اهدافـه المرسومة · فهو ـ منـذ اليوم الاول ـ سواء وهو يخاطب العشيرة الاقربين ، أو يخاطب قريشا ، أو يخاطـب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمـين ، انما يخاطبهم بقاعـدة واحدة ، ويطلب منهم الانتهاء الى هدف واحد هو اخـلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد · لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين ·· ثم يمضي الى تحقيق هـذا الهدف الواحد في خطة مرسومة ، ذات مراحل محددة ، لكـل مرحلة وسائلها المتجددة · على نحو ما اسلفنا في الفقرة السابقة ·

والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الاخرى ـ عـلى النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيـد الذي نقلناه عـن « زاد المعاد » ـ وقيام ذلك الضبط على أساس ان الاسـلام لله هو الاصل العالمي الذي على البشرية كلها ان تفيء اليـه ، أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوتـه بأي حائل من نظـام سياسي ، أو قوة مادية ، وان تخلي بينه وبـين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق ارادتـه ، ولكن لا يقاومـه ولا

يحاربه ! فان فعل ذلك احد كان على الاسلام ان يقاتله حتى يقتله او حتى يعلن استسلامه !

***

والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن « الجهاد في الاسلام » ليدفعوا عن الاسلام هذا « الاتهام » يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الاكراه على العقيدة ، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ، والتي تعبد الناس للناس ، وتمنعهم من العبودية لله ٠٠ وهما امران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما ٠٠ ومن أجل هذا التخليط ، وقبل ذلك من اجل تلك الهزيمة ! ـ يحاولون أن يحصروا الجهاد في الاسلام فيما يسمونه اليوم : « الحرب الدفاعية » ٠٠ والجهاد في الاسلام امر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك ٠٠ ان بواعث الجهاد في الاسلام ينبغي تلمسها في طبيعة « الاسلام » ذاته ودوره في هذه الارض ، واهدافه العليا التي قررها الله ، وذكر الله انه ارسل من اجلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات ٠

ان هذا الدين اعلان عام لتحرير « الانسان » في « الارض » من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه ايضا وهي من العبودية للعباد ـ وذلك باعلان الوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين ٠٠ ! ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها واشكالها وانظمتها واوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع في ارجاء الارض ، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور ٠٠ او بتعبير آخر مرادف : الالوهية فيه للبشر في

صورة من الصور ٠٠ ذلك ان الحكم الذي مردّ الامر فيه الى البشر ، ومصدر السلطات فيه هم البشر ، هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض اربابا من دون الله ٠ ان هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده الى الله ، وطرد المغتصبين له ، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند انفسهم ، فيقومون منهم مقام الارباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد ٠٠ ان معناه تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله في الارض ، او بالتعبير القرآني الكريم :

« وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله » ٠

« ان الحكم الا لله ٠٠ أمر ألاّ تعبدو الاّ ايّاه ٠٠ ذلك الدين القيم ٠٠ »

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ٠٠ ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ٠ فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ٠٠ »

ومملكة الله في الارض لا تقوم بان يتولى الحاكمية في الارض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الامر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فيما يعرف باسم « الثيوقراطية » أو الحكم الالهي المقدس !! ـ ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ، وأن يكون مرد الامر الى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة ٠

وقيام مملكة الله في الارض ، وازالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من ايدي مغتصبيه من العباد ورده الى الله وحده ٠٠ وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغاء القوانين البشرية ٠٠ كل اولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان ، لان

المتسلطين على رقاب العباد ، والمغتصبين لسلطان الله في الارض ، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، والا فما كان أيسر عمل الرسل في اقرار دين الله في الارض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الاجيال !

ان هذا الاعلان العام لتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان غير سلطان الله ، باعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن اعلانا نظريا فلسفيا سلبيا ٠٠ انما كان اعلانا حركيا واقعيا ايجابيا ٠٠ اعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك ٠٠ ومن ثم لم يكن بد من ان يتخذ شكل « الحركة » الى جانب شكل « البيان » ٠٠ ذلك ليواجه « الواقع » البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه ٠

والواقع الانساني ، أمس واليوم وغدا ، يواجه هذا الدين - بوصفه اعلانا عاما لتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان غير سلطان الله - بعقبات اعتقادية تصورية ، وعقبات مادية واقعية ٠٠ وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، الى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة ٠٠ وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ٠

واذا كان « البيان » يواجه العقائد والتصورات ، فان « الحركة » تواجه العقبات المادية الاخرى - وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة - ٠٠ وهما معا - البيان والحركة - يواجهان « الواقع البشري » بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته ٠٠

وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للانسان في الارض ·· « الانسان » كله في « الارض » كلها ·· وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة اخرى !

ان هذا الدين ليس اعلانا لتحرير الانسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! ·· ان موضوعه هو « الانسان » ·· نوع « الانسان » ·· ومجاله هو « الارض » ·· كل « الارض » · ان الله ـ سبحانه ـ ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الاسلامية وحدهم ·· ان الله هو « رب العالمين » ·· وهذا الدين يريد أن يرد « العالمين » الى ربهم ، وان ينتزعهم من العبودية لغيره · والعبودية الكبرى ـ في نظر الاسلام ـ هي خضوع البشر لاحكام يشرعها لهم ناس من البشر ·· وهذه هي « العبادة » التي يقرر أنها لا تكون الا لله ، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى انه في هذا الدين · ولقد نص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن « الاتّباع » في الشريعة والحكم هو « العبادة » التي صار بها اليهود والنصارى « مشركين » مخالفين لما أمروا به من « عبادة » الله وحده ··

أخرج الترمذي ـ باسناده ـ عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ انه لما بلغته دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فر الى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أخته فاعطاها ، فرجعت الى أخيها فرغّبته في الاسلام ، وفي القدوم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي عنقه ـ اي « عدي » صليب من فضة وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه

الآية ٠٠ « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ٠٠ قال : فقلت انهم لم يعبدوهم ، فقال « بلى ! انهم حرّموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم اياهم » ٠

وتفسير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لقول الله سبحانه ، نص قاطع على ان الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض الناس اربابا لبعض ٠٠ الامر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ، ويعلن تحرير « الانسان » ، في « الارض » من العبودية لغير الله ٠٠

ومن ثم لم يكن بد للاسلام ان ينطلق في « الارض » لازالة « الواقع » المخالف لذلك الاعلان العام ٠٠ بالبيان وبالحركة مجتمعين ٠٠ وان يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبّد الناس لغير الله ٠٠ — اي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه — والتي تحول بينهم وبين الاستماع الى « البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها السلطان ٠ ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي — بعد ازالة القوة المسيطرة — سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية ، أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

انه لم يكن من قصد الاسلام قط ان يكره الناس على اعتناق عقيدته ٠٠ ولكن الاسلام ليس مجرد « عقيدة » ٠ ان الاسلام كما قلنا اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ٠ فهو يهدف ابتداء الى ازالة الانظمة والحكومات التي تقوم على اساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان ٠٠ ثم يطلق الافراد بعد ذلك احرارا — بالفعل — في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم — بعد رفع

الضغط السياسي عنهم ، وبعد البيـــان المنير لأرواحهـــم وعقولهم ـ ولكن هذه التجربة ليس معناها ان يجعلـوا الههم هواهم ، أو ان يختاروا بأنفسهم ان يكونوا عبيدا للعباد ! وان يتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله !٠٠ ان النظـام الذي يحكم البشر في الارض يجب ان تكون قاعدته العبودية للـه وحده ، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده ٠ ثم ليعتنـــق كل فرد ـ في ظل هذا النظام العـــام ـ ما يعتنقـــه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله ٠ اي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله ٠٠ ان مدلول « الدين » اشمـل من مدلول « العقيدة » ان الدين هو المنهج والنظـــام الـذي يحكم الحياة ، وهو في الاسلام يعتمد عـــلى العقيدة ، ولكنه في عمومه اشمل من العقيدة ٠٠ وفي الاسلام يمكن ان تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على اساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام ٠

والذي يدرك طبيعة هذا الدين ـ عـــلى النحو المتقـدم ـ يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للاسلام في صورة الجهاد بالسيف ـ الى جانب الجهاد بالبيان ـ ويدرك ان ذلك لم يكن حركة دفاعية ـ بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم مـــن اصطلاح « الحرب الدفاعية » كما يريد المهزومون امام ضغط الواقـع الحاضر وامام هجوم المستشرقـــين الماكر ان يصوروا حركـة الجهاد في الاسلام ـ انما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الانسان » في « الارض » ٠٠ بوسائل مكافئـــة لكل جوانب الواقع البشري ، وفي مراحل محددة لكـــل مرحلة منهـــا وسائلها المتجددة ٠

واذا لم يكن بد ان نسمي حركة الاسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة « دفاع » ، ونعتبـــره « دفاعا عن الانسان » ذاته ، ضد جميع العوامل التـــي تقيد

حريته وتعوق تحرره٠٠ هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ، كما تتمثل في الانظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التي كانت سائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام ، والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان !

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة « الدفاع » نستطيع ان نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الاسلامي في « الارض » بالجهاد، ونواجه طبيعة الاسلام ذاتها ، وهي انه اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، وتقرير الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الارض ، واقامة مملكة الشريعة الالهية في عالم الانسان ٠٠

اما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن اسانيد لاثبات ان وقائع الجهاد الاسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على « الوطن الاسلامي » ـ وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب ـ فهي محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الارض ٠ كما انها تشي بالهزيمة امام ضغط الواقع الحاضر ، وامام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي !

ترى لو كان ابو بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الاسلامي الى اطراف الارض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وامام الدعوة تلك العقبات المادية من انظمة الدولة السياسية ، وانظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟!

انها سذاجـــة ان يتصور الانسان دعوة تعلن تحرير « الانسان » ⋅⋅ نوع الانســان ⋅⋅ في « الارض » ⋅⋅ كـل الارض ⋅⋅ ثم تقف امام هذه العقبات تجاهدهــا باللسان والبيان ! ⋅⋅ انها تجاهد باللسان والبيان حينمـا يخـلى بينها وبين الافراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات ⋅⋅ فهنا « لا اكراه في الدين » ⋅⋅ امـا حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد مـن ازالتها اولا بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله ، وهـو طليق من هذه الاغلال !

ان الجهاد ضرورة للدعوة ، اذا كانت أهدافهـا هـي اعلان تحرير الانسان اعلانا جادا يواجـه الواقع الفعلـي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري ! سواء كان الوطن الاسلامي ـ وبالتعبْير الاسلامـي الصحيح : دار الاسلام ـ آمنـا أم مهددا من جـيرانه ⋅ فالاسلام حين يسعى الى السلـم ، لا يقصد تلك السلـم الرخيصة ، وهي مجرد ان يؤمن الرقعة الخاصة التـي يعتنق أهلها العقيدة الاسلامية ⋅ انما هو يريد السلم التـي يكون الدين فيها كله لله ، أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ، والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله ⋅ والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت اليها الحركة الجهاديـة في الاسلام ـ بأمر من الله ـ لا بأوائل ايام الدعوة ولا بأواسطها ⋅⋅ ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الامـام ابن القيـم : « فاستقر أمر الكفار معه ـ بعد نزول براءة ـ عـلى ثلاثـة اقسام : محاربين له ، وأهل عهـد ، وأهل ذمة ⋅⋅ ثـم آلت حال أهل العهد والصلح الـى الاسلام ⋅⋅ فصاروا معـه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ⋅⋅ فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم

له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب » ..

وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه ، لا كما يفهم المهزومون امام الواقع الحاضر ، وأمام هجوم المستشرقين الماكر !

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ، وفي أول العهد بالهجرة الى المدينة .. وقيل للمسلمين : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. ثم اذن لهم فيه ، فقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » .. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .. وقيل لهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فكان القتال ـ كما يقول الامام ابن القيم ـ « محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين » ..

ان جدّية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ، وجدية الاحاديث النبوية التي تحض عليه ، وجدية الوقائع الجهادية

في صدر الاسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه ٠٠ ان هذه الجدية الواضحة تمنع ان يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون امام ضغط الواقع الحاضر وامام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي !

ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتابع وقائع الجهاد الاسلامي ، ثم يظنه شأنا عارضا مقيدا بملابسات تذهب وتجيء ، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟!

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال ان الشأن الدائم الاصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن الارض : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير ٠ الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ٠ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** » ٠٠ واذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة ٠ الشأن الدائم ان لا يتعايش الحق والباطل في هذه الارض ٠ وانه متى قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية للعباد ، رماه المغتصبون لسلطان الله في الارض ولم يسالموه قط ، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن « الانسان » في « الارض » ذلك السلطان الغاصب ٠٠ حال دائمة لا يقف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله ٠

ان الكف عن القتال في مكة لم يكن الا مجرد مرحلة في خطة طويلة ٠ كذلك كان الامر اول العهد بالهجرة ٠ والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الاولى

للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة ٠٠ هذا هدف اولي لا بد منه ، ولكنه ليس الهدف الاخير ٠ ١٠انه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ، ويؤمن قاعدة الانطلاق ٠٠ الانطلاق لتحرير « الانسان » ، ولازالة العقبات التي تمنع « الانسان » ذاته من الانطلاق !

وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم٠ لانه كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ ٠٠ كان صاحبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ يملك بحماية سيوف بني هاشم ، أن يصدع بالدعوة ، ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ، ويواجه بها الافراد ٠٠ لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من ابلاغ الدعوة ، أو تمنع الافراد من سماعه ! فلا ضرورة ـ في هذه المرحلة ـ لاستخدام القوة ، وذلك الى أسباب اخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة ٠ وقد لخصتها في ظلال القرآن عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٠٠٠ » من سورة النساء ٠ ولا بأس في اثبات بعض هذا التلخيص هنا :

« ربما كان ذلك لان الفترة المكية كانت فترة تربية واعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة ٠ ومن اهداف التربية والاعداد في مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه او على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته ٠ وتربيته كذلك على ضبط اعصابه ، فلا يندفع لاول مؤثر ـ كما هي طبيعته ـ ولا يهتاج لاول مهيج ، فيتم الاعتدال في طبيعته وحركته ٠ وتربيته على ان يتبع مجتمعا منظما له قيادة

يرجع اليها في كل امر من أمور حياته ، ولا يتصرف الا وفق ما تأمره به ــ مهما يكن مخالفا لمألوفه وعادته ــ وقــد كان هذا هو حجر الاساس في اعداد شخصية العربــي ، لانشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي او القبلي !

« وربما كان ذلك أيضا ٠ لان الدعوة السلمية كانــت أشد أثرا وانفذ ، في مثل بيئة قريش ٠ ذات العنجهيــة والشرف ٠ والتي قد يدفعها القتال معها ــ في مثــل هــذه المرحلة ــ الى زيادة العناد ، والى نشأة ثارات دموية جديــدة كثارات العرب المعروفة التي اثارت حرب داحس والغبــراء ، وحرب البسوس ، اعواما طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها ٠ وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في اذهانهم وذكرياتهم بالاسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك ابدا ، ويتحول الاســلام من دعوة ودين الى ثارات وذحول تنسى معها وجهتــه الاساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر ابدا !

« وربما كان ذلك ايضا ، اجتنابا لانشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت ٠ فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم ، انما كـان ذلك موكولا الى اولياء كل فرد يعذبونه ويفتنونه « ويؤدبونـــه ! » ومعنــى الاذن بالقتال ــ في مثل هذه البيئة ــ ان تقع معركــة ومقتلة في كل بيت ٠٠ ثم يقال : هذا هو الاسلام ! ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فــي الموسم ٠ في أواسط العرب القادمين للحج والتجارة : ان محمــدا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتــل الولي ٠٠ في كل بيت وفي كل محلة ؟

« وربما كان ذلك ايضا لما يعلمه الله من ان كثيريــن

من المعاندين الذين يفتنون اوائـــل المسلمين عن دينهـــم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الاسلام المخلص ، بل من قادته ٠٠ ألم يكن عمر بن الخطاب من بـين هؤلاء ؟!

« وربما كان ذلك أيضا ، لان النخوة العربية ٠ فـي بيئة قبلية ، من عادتها ان تثور للمظلوم الذي يحتمل الاذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة اذا كان واقعا على كرام الناس فيهم ٠٠ وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ فـي هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض ان يترك ابا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته ٠٠ وآخر هذه الظواهـــر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب ابـي طالب ، بعد مـــا طال عليهم الجوع واشتدت المحنة ٠٠ بينما في بيئـــة اخرى من بيئات « الحضارة » القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الاذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقـــار من البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

« وربما كان ذلك ، ايضا ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ٠ وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة او بلغت اخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف عـــلى الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض ابنائهـــا ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف ٠ ففي مثل هـــذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، الى قتل المجموعة المسلمة القليلـــة ـ حتى ولو قتلوا هم اضعاف من سيقتل منهـــم ـ ويبقـى الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة ، ولـــم يقـــم في الارض للاسلام نظام ، ولا وجد له كيـــان واقعي ٠ وهو دين جـــاء ليكون منهاج حياة ، وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة ٠

« ٠٠٠ الخ » ٠٠٠

فأما في المدينة ـ في أول العهد بالهجرة ـ فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك ..

اولا : لان هناك مجالا للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ، وبقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على الا يعقد احد منهم صلحا ولا يثير حربا ، ولا ينشىء علاقة خارجية الا باذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان واضحا ان السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال امام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانيا : ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يريد التفرغ ، في هذه المرحلة ـ لقريش ، التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الاخرى الواقعة في حالة انتظار لما ينتهي اليه الامر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارسال « السرايا » وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة اشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة اشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهرا . ثم على رأس ستة عشر شهرا . ثم كانت سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرا ، وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال ، وكان ذلك في الشهر الحرام ، والتي نزلت فيها آيات البقرة : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ،

واخراج اهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا .. »

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة .. وهي التي نزلت فيها سورة الانفال .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالا للقول بأن « الدفاع » بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الاسلامية ، كما يقول المهزومون امام الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر !

ان الذين يلجأون الى تلمس اسباب دفاعية بحتة لحركة المد الاسلامي ، انما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية ، في وقت لم يعد للمسلمين شوكة ، بل لم يعد للمسلمين اسلام! ـ الا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق اعلان الاسلام العام بتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان الا من سلطان الله ، ليكون الدين كله لله ـ فيبحثون عن مبررات ادبية للجهاد في الاسلام !

والمد الاسلامي ليس في حاجة الى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .. (النساء : ٧٤ ـ ٧٦) .

« قل للذين كفروا : ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين · وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله · فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ، وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير » ·· (الانفال : ٣٨ ـ ٤٠) ·

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون· وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله · ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون · يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ، ولو كره الكافرون » ··· (التوبة : ٢٩ ـ ٣٢) ·

انها مبررات تقرير الوهية الله في الارض ، وتحقيق منهجه في حياة الناس ، ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين ، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس ، والناس عبيد لله وحده ، لا يجوز ان يحكمهم احد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهذا يكفي ·· مع تقرير مبدأ : « لا اكراه في الدين » ·· أي لا اكراه على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ، والاقرار بمبدأ ان السلطان كله لله ، او ان الدين كله لله ، بهذا الاعتبار ·

انها مبررات التحرير العام للانسان في الارض · باخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك ·· وهذه وحدها تكفي ·· لقد كانت هذه المبررات ماثلة في

نفوس الغزاة من المسلمين ، فلم يسأل احد منهم عما اخرجه للجهاد فيقول : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس او الروم علينا نحن المسلمين ! او خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر ٠ وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية ، وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة ايام متوالية ، قبل المعركة : ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ٠ ومن ضيق الدنيا الى سعتها ٠ ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ٠٠ فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ٠ ومن ابى قاتلناه حتى نفضي الى الجنة او الظفر » ٠

ان هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته ، وفي اعلانه العام ، وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، في مراحل محددة ، بوسائل متجددة ٠٠ وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء ـ ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الارض الاسلامية وعلى المسلمين فيها ـ انه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية ٠٠ لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة ، وموقوتة !

وانه ليكفي لان يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله ٠٠ « في سبيل الله » ٠٠ في سبيل هذه القيم التي لا ينال هو من ورائها مغنم ذاتي ، ولا يخرجه لها مغنم ذاتي ٠٠

ان المسلم قبل ان ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الاكبر في نفسه مع الشيطان ٠٠ مع

هواه وشهواته ·· مع مطامعه ورغباتـه ·· مع مصالحـه ومصالح عشيرته وقومه ·· مع كل شارة غير شارة الاسلام ·· ومع كل دافع الا العبودية لله ، وتحقيـق سلطانه فـي الارض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله ··

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الاسلامي في حماية « الوطن الاسلامي » يغضون من شأن « المنهـج » ويعتبرونـه اقل من « الموطن » وهذه ليست نظرة الاسـلام الى هـذه الاعتبارات · انها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الاسلامي ، فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيـه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الاسلامي · اما الارض ـ بذاتها ـ فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمـة للارض في التصور الاسلامي انما هي مستمدة من سيادة منهـج الله وسلطانه فيها ، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقـل المنهج و « دار الاسلام » ونقطة الانطلاق لتحرير « الانسان » ·

وحقيقة ان حماية « دار الاسلام » حمايـة للعقيـدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيـه المنهج · ولكنها هي ليست الهدف النهائي ، وليست حمايتها هي الغاية الاخيرة لحركة الجهاد الاسلامي ، انما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق الى الارض كلها والى النوع الانساني بجملته · فالنوع الانساني هو موضوع هـذا الدين والارض هي مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فان الانطلاق بالمذهب الالهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ، ونظام المجتمع ، وأوضـاع البيئة ·· وهذه كلها هي التي ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة، كي يخلو له وجه الافراد من الناس ، يخاطب ضمـائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لهـا بعد ذلك حرية الاختيار ·

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حمـلات المستشرقين عـلى مبدأ « الجهاد » وألا يثقل على عاتقنـا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالميـة ، فنروح نبحث للجهـاد الاسلامي عن مبررات ادبية خارجـة عن طبيعة هذا الدين ، فـي ملابسات دفاعية وقتية ، كان الجهاد سينطلق فـي طريقه سواء وجدت أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي الا نغفـل عن الاعتبـارات الذاتية في طبيعة هـذا الدين واعلانـه العام ومنهجه الواقعي ، وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقا انه لم يكن بد لهذا الدين ان يدافع المهاجمين له ، لان مجرد وجوده في صورة اعلان عام لربوبية اللـه للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هـذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غـير قيـادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحـد من البشر بالحاكمية ، لان الحاكمية فيـه لله وحده .. ان مجرد وجود هذا الدين في هـذه الصورة لا بد أن يدفـع المجتمعات الجاهلية من حوله ، القائمة على قاعـدة العبوديـة للعباد ، أن تحاول سحقـه ، دفاعا عن وجودها ذاتـه ، ولا بد ان يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه ..

هذه ملابسة لا بد منها ، تولد مع ميلاد الاسلام ذاتـه ، وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضـا ، ولا خيار لـه في خوضها ، وهـذا صراع طبيعي بـين وجودين لا يمـكن التعايش بينهما طويلا ...

هذا كله حق .. ووفق هـذه النظرة يكون لا بـد للاسلام أن يدافع عن وجوده ، ولا بد أن يخـوض معركة

دفاعية مفروضة عليه فرضا ٠٠

ولكن هناك حقيقة اخرى اشد اصالة من هذه الحقيقة ٠٠ ان من طبيعة الوجود الاسلامي ذاته ان يتحرك الى الامام ابتداء ٠ لانقاذ « الانسان » في « الارض » من العبودية لغير الله ، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ، ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية ، تاركا « الانسان » ٠٠ نوع الانسان ٠٠ في « الارض » ٠٠ كل الارض ٠٠ للشر والفساد والعبودية لغير الله ٠

ان المعسكرات المعادية للاسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الاسلام ، اذا تركها الاسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية ، ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد اليها دعوته واعلانه التحريري العام ! ولكن الاسلام لا يهادنها ، الا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة اداء الجزية ، ضمانا لفتح ابوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها ٠

هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته ، بحكم انه اعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله في الناس اجمعين !

وفرق بين تصور الاسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابعا داخل حدود اقليمية او عنصرية ، لا يحركه الا خوف الاعتداء ! انه في هذه الصورة الاخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق !

ان مبررات الانطلاق الاسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر ان هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية ، وليس منهج انسان ، ولا مذهب شيعة من الناس ، ولا نظام جنس من الاجناس ! ٠٠٠ ونحن لا نبحث عن مبررات

خارجية الا حين تفتر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة ‥ حين ننسى ان القضية هي قضية الوهية الله وعبودية العباد ‥ انه لا يمكن ان يستحضر انسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الاسلامي !

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين تصور ان الاسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها ، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الاخرى التي لا بد ان تهاجمه ، وتصور انه هو بذاته لا بد ان يتحرك ابتداء ، فيدخل في هذه المعركة ‥

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة ، فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتما ، ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة ، تغير المشاعر والمفهومات الاسلامية تغييرا كبيرا ‥ خطيرا ٠

ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام منهجا الهيا ، جاء ليقرر الوهية الله في الارض ، وعبودية البشر جميعا لاله واحد ، ويصب هذا التقرير في قالب واقعي ، هو المجتمع الانساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، فلا تحكمهم الا شريعة الله ، التي يتمثل فيها سلطان الله ، او بتعبير آخر تتمثل فيها الوهيته ‥ فمن حقه اذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ، ليخاطب وجدان الافراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي ، أو أوضاع الناس الاجتماعية ‥ ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام على هذا النحو ، واعتباره نظاما محليا في وطن بعينه فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الاقليمية !

هذا تصور ‥ وذاك تصور ‥ ولو أن الاسلام في كلتا

الحالتين سيجاهد ٠٠ ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه ، يختلف اختلافا بعيدا ، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه ٠

ان من حق الاسلام أن يتحرك ابتداء ٠ فالاسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن ، ولكنه منهج اله ، ونظام عالم ٠٠ ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الانظمة والاوضاع التي تغل من حرية « الانسان » في الاختيار ٠ وحسبه أنه لا يهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته ، انما يهاجم الانظمة والاوضاع ليحرر الافراد من التأثيرات الفاسدة ، المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار ٠

من حق الاسلام أن يُخرج « الناس » من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ٠٠ ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين ٠٠ وعبادة الله وحده لا تتحقق – في التصور الاسلامي وفي الواقع العملي – الا في ظل النظام الاسلامي ٠ فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم ، حاكمهم ومحكومهم ، أسودهم وأبيضهم ، قاصيهم ودانيهم ، فقيرهم وغنيهم ، تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء ٠٠ اما في سائر الانظمة ، فيعبد الناس العباد ، لانهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد ٠ وهو من خصائص الالوهية ، فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه ، فقد ادّعى الالوهية اختصاصا وعملا ، سواء ادّعاها قولا ام لم يعلن هذا الادعاء ٠ وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الالوهية ، سواء سماها باسمها ام لم يسمها !

والاسلام ليس مجرد عقيدة ، حتى يقنع بابلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان ٠ انما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس ، والتجمعات الاخرى لا

تمكّنه من تنظيم حياة رعاياها وفـق منهجه هو ، ومـن ثم يتحتم على الاسلام ان يزيل هـذه الانظمة بوصفها معوقات للتحرير العام ٠ وهذا ـ كما قلنا من قبل ـ معنى ان يكـون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونـة ولا طاعة لعبـد من العباد لذاته ، كما هو الشأن في سائر الانظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد !

ان البـاحثين الاسلاميين المعـاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجـوم الاستشراقي المـاكر ، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقـة ، لان المستشرقين صوروا الاسـلام حركـة قهر بالسيف للاكراه عـلى العقيدة ٠ والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيـدا ان هـذه ليست هي الحقيقة ، ولكنهم يشوهون بواعث الجهـاد الاسلامي بهـذه الطريقة ٠٠ ومن ثم يقوم المنافحون ـ المهزومون ـ عن سمعة الاسلام ، بنفي هذا الاتهـام ، فيلجأون الى تلمس المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعـة الاسلام ووظيفته ، وحقه في « تحرير الانسان » ابتداء ٠

وقد غشي على أفكار الباحثين العصريـين ـ المهزومين ـ ذلك التصور الغربي لطبيعـة « الدين » ٠٠ وانـه مجرد « عقيدة » في الضمير ، لا شأن لها بالانظمة الواقعية للحياة ٠ ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهادا لفرض العقيدة على الضمير!

ولكن الامر ليس كذلك في الاسـلام ، فالاسلام منهج الله للحياة البشرية ، وهو منهج يقوم عـلى افراد الله وحده بالالوهية ـ متمثلة في الحاكمية ـ وينظم الحيـاة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهـاد له جهـاد لتقرير المنهج واقامة النظـام ٠ امـا العقيـدة فأمر موكول الى حريـة الاقتناع ، في ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات ٠٠

ومن ثم يختلف الامر من أساسه ، وتصبح لـه صورة جديدة كاملة ٠

وحيثما وجد التجمع الاسلامـي ، الذي يتمثل فيـه المنهج الالهي ، فان الله يمنحه حق الحركة والانطـلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام ، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان ٠ فاذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهـاد ، فهذه مسألة خطـة لا مسألة مبدأ ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة ٠٠ وعـلى هـذا الاساس الواضح يمكن ان نفهم النصوص القرآنيـة المتعددة ، فـي المراحل التاريخية المتجددة ، ولا نخلط بين دلالتها المرحلية ، والدلالة العامة لخط الحركة الاسلامية الثابت الطويل ٠

